دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

صوتي واضح

باسل الأعرج

بسم الله الرحمن الرحيم

إســـم الـكـتـاب: **صوتي واضح صوتي عالي**
مختارات من كتابات الشهيد باسل الأعرج (المثقّف المشتبك)

إعـــــــــــداد: لبيك

نـــــــــــشر: لبيك

تـاريـخ الـطـبـاعـة: ٢٠١٩م - ١٤٤٠هـ

طـــبـــاعـــة: DB UK 00961 3 336218

ISBN: 978-614-464-041-8

صوتي واضح
صوتي عالي

مختارات من كتابات

الشهيد باسل الأعرج

(المثقّف المشتبك)

الفهرس

المقدّمة 7

بطاقة شخصيّة 9

باسل، المثقّف المشتبك 13

1. المقاومة 27

2. مفهوم القهر والمقهورين 49

3. الوعي 57

4. المجتمع 61

5. الآفات والأمراض 65

كلمات قصار 73

الوصيّة 79

المقدّمة

بين أيديكم خلاصة مجموعة كبيرة من نصوص الشهيد باسل الأعرج، تمّ جمعها من الشبكة العنكبوتية التي نشط فيها الشهيد نشرًا وتدوينًا في حساباته الشخصية؛ على الفايسبوك، وتويتر، وفي مدوّنات عديدة؛ كشبكة القدس الإخبارية، وموقع «باب الواد» الإلكتروني التابع «لدائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرّر المعرفي»، والذي عمل فيه الشهيد باحثًا لسنوات عدّة، وصفحة الدائرة على الفايسبوك، فضلًا عن صفحتيْ «نادي زِدني» ومدوّنة «الشارع العربي».

وقد قمنا بتصنيف المادة موضوعيًّا، وتجزئتها، وترتيبها على أقسام وتصنيفات عدة، وهي ما دوّنه ونشره الشهيد في عناوين: «المقاومة، الصراع وأدواته، حرب العصابات، الانتفاضة، الكفاح المسلّح، الهبّات الشعبية، الوعي، المجتمع، مفهوم القهر والمقهورين، رؤية الشهيد للآفات والأمراض السياسية

والاجتماعية وعلاجها»، واختتمناها بمجموعة من الكلمات القصار للشهيد التي تتناول عددًا كبيرًا من الموضوعات، ولا نزعم أنّنا وفّينا الشهيد حقّه وهو الذي يحتاج بنتاجه الغزير كمًّا ونوعًا إلى عمل موسوعي، فهو بحقّ ممّن يمكننا تكنِيَتهم باطمئنان بـ «فارس الوعي الميداني» الذي نظر وكتب وقرن القول بالفعل «بلا ذرّة رياء».

بطاقة شخصيّة

الشهيد **باسل محمود الأعرج**

تاريخ الميلاد: 27.01.1984

العمر: 33 عامًا عند الشهادة

هو ناشطٌ فلسطيني، من مواليد قرية الولجة والتي تُعدّ أهم البؤر الساخنة في المقاومة الشعبية ضد الاستيطان، وضد الجدار العنصري، والتي تقع قرب بيت لحم، وتبعد عن مدينة القدس حوالي 5 كيلومترات.

درس الصيدلة في مصر، وحصل على بكالوريوس في الصيدلة، لكنّه لم يقبل العمل في الخارج على الرغم من العروض الكبيرة من إحدى الدول الخليجية، وفضّل العودة إلى فلسطين ليعمل في مجاله حوالي سبعة أشهر، ثمّ ليترك مهنة الصيدلة ويتفرغ للنضال بصفته ناشطًا وباحثًا ومنظّمًا لجولات تعرّفية على مناطق المقاومة الفلسطينية.

عمل باحثًا في «المتحف الفلسطيني - دائـرة سليمان الحلبي»، وكان مسؤولًا عن مشروع توثيق تاريخ فلسطين الشفهي، والذي يُعرف بمشروع «المسرد الزمني»، وهو كاتب التاريخ الشفوي. وخلال ست سنوات من العمل، أسّس قاعدة من الباحثين تؤمن بأهمية تدوين التاريخ الشفوي للمقاومة الفلسطينية.

بعد اندلاع انتفاضة القدس في العام 2015، تعرّض للاعتقال من طرف السلطة الفلسطينية مع خمسة معتقلين سياسيين. وفي العام 2016، اعتُقل بتهمة التخطيط لعمليات مسلّحة ضد العدو الإسرائيلي، لأشهر عدة.

بعد أشهر، وبترتيب بين السلطة والاحتلال يقضي بإطلاق المعتَقَلين الستة من سجون السلطة، لتتمكّن قوات العدو من اعتقالهم، أطلقت السلطة الفلسطينية سراحه من سجن بيتونيا في رام الله مع رفاقه الذين اعتقلهم الصهاينة فورًا، إلا أنّ الشهيد كان منتبهًا للأمر، فاختفى عن الأنظار. وعلى الرغم من مداهمة جنود العدو لمنزله ثلاث مرّات والتهديد بهدمه، إلا أنّهم لم يستطيعوا النيل من الشهيد باسل.

في أيلول من العام 2016، بدأت سلطات الاحتلال مطاردة الأعرج الذي وصفه جهاز المخابرات الإسرائيلي بأحد أبرز قادة

الحراك الشبابي الفلسطيني، بعدما صنّف هذا الحراك تنظيمًا إرهابيًا.

استشهد باسل الأعرج في 6 مارس/آذار من العام 2017، عندما اقتحمت قوة إسرائيلية خاصة منزلًا كان يقطنه في مدينة البيرة قرب رام الله في الضفة الغربية وقتلته واختطفت جثمانه، بعدما اشتبك الأعرج مع القوات المهاجِمة حتى نفاذ ذخيرته.

باسل، المثقّف المشتبك

بدّك تصير مثقّف، بدّك تصير مُشتبِك،

ما بدّك مُشتبِك... بلا مِنّك وبلا مِن ثقافتك.

إذا أردنا أن نقرأ الشهيد المفكّر «باسل الأعرج» ونحلّل شخصيّته التي أجمع عليها الناس عرفانًا وحُبًّا، بعد شيوع نبأ استشهاده، نجد أنّنا أمام ظاهرة مميّزة في حركة النّضال الفلسطيني، الممتدّة من أوائل القرن العشرين. وعلى الرغم من أنّ المقاومة الفلسطينية تذخر بنماذج لا تُحصى من الشهداء الأبرار النوعيين، بدءًا من الشهيد السعيد الشيخ عز الدّين القسّام في أحراج يعبد في ثلاثينات القرن الماضي، وصولًا إلى آخر القرابين، فإنّ الشهيد باسل تَميّز بمجموعة من الصفات التي تجعله نموذجًا لكلّ كادر مؤثّر في هذه الحقبة من تاريخ النضال الفلسطيني. وإذا أردنا أن نحدّد أهم مميّزات هذه الشّخصيّة الفذّة، نرى الآتي:

أولًا: الإيمان بالله إيمانًا عمليًا وبعقيدة قوية، تربط نتائج العمل وتحقيق الفعل بالإرادة الإلهية، لا بتوقيت البشر، بل بالإرادة الإلهيّة وبشروط على المجاهد أن يحقّقها من خلال عمله وسعْيه من دون توقّف ومن دون تحديد للأسقف، وهذا ما يُعتبر عنصرًا أساسيًّا لأيّ استراتيجية ملائمة لحرب عصابات ناجحة في الميدان الفلسطيني.

ثانيًا: فهْم عقل وأيديولوجية وطرق عمل العدو، من خلال معرفة أدواته، وثقافته، ونقاط ضعفه، ودراسة تجاربه، خاصة في مجال الصراع، واعتبار التاريخ ودروسه وحدة لا تتجزّأ عن التخطيط والعمل. وإذا جاز لنا التعبير، فإنّ الشهيد باسل اتّخذ من الخبرة التاريخية للنضال الفلسطيني ودروس الصراع الفلسطيني الصهيوني سلاحًا للعمل والحشد، ومقارعة العدو والاستفادة من الدروس.

ثالثًا: دراسة تجارب حركات التحرّر بعمق، وهضم فلسفة حرب العصابات ومدارسها بطريقة العارف الذي يستنبط من خلال معرفته الموسوعية الواعية ما يحتاجه في الصراع، على مستوى الثقافة، والفكر، والحرب النفسية، والإعداد الفكري الذي لا يمكن أن ينفكّ في عُرف الشهيد باسل عن البندقية، وهذا ما كان يسمّيه الشهيد بثقافة المشتبِك.

كانت ميزته الأهمّ أنّه كان يعتبر حرب العصابات جزءًا أساسيًّا من مراحل الصراع الحضاري مع العدو.

رابعًا: الإبداع والإتقان في العمل الشعبي الثوري، والذي يُعتبر من الشروط الأساسية لنجاح أيّ إستراتيجية تحريرية تعتمد فلسفة حرب العصابات، وهي التي تعتبر الأثر الثوري والشعبي جـزءًا حيويًا لإنجاح وتسريع حرب العصابات. فكلّ تجارب حروب العصابات تعتبر التكامل بين حشد التأييد الشعبي والحراك العسكري جزءًا أساسيًا لنجاح حرب العصابات.

خامسًا: على الرغم من أنّه درس في مصر، وكانت شهادته تؤهله للعمل خارج فلسطين، إلا أنّ الشهيد لم يترك أرضه وقضيّته، فعاد إلى الضفّة الغربية لبناء مشروع كبير واكبه بنفسه، واستطاع بصبرٍ فرضه على الواقع أن يجد في شريحة الشباب خير مُعين، فيزهر زرعه وقت الحاجة عندما عمل العدو الصهيوني على الاستفادة من فوضى الربيع العربي، لتكميم النضال الفلسطيني.

سادسًا: الاستفادة من كل الأنشطة النضالية التي كان يقوم بها أو يقودها «بصفته ناشطًا مدنيًّا أو كاتبًا أو محاضرًا أو مجاهدًا» لمنْع العدو الصهيوني من تحقيق قطْع الاشتباك

في الميدان الفلسطيني، «وهو ما خطّط له العدو منذ بداية ما سُمّي بـ«الربيع العربي»، وتعاظُم الهجمة الصهيونية والأميركية على المنطقة»؛ لأنّ قطْع الاشتباك الذي حاول العدو فرْضه منذ اتفاق أوسلو يعني القضاء على أهمّ ما تملكه الثورة الفلسطينية، وهو الكفاح المسلّح، وكلّ الحراك المرتبط به. وتميّز الشهيد باسل أنّه وعى هذا المخطّط مبكرًا، ومن دون أيّ لبْس، وعمل في أغلب المجالات على إفشال العدو ومنْعه من تحقيق مبتغاه.

سابعًا: يُسجَّل للشهيد باسل أنّه أتقن فنون الإعلام الجديد ولغة وثقافة العصر، واستطاع فرْض سلاح جديد في معركة الوعي مع العدو، وهو سلاح التدوين في ميدان انتصر فيه الشهيد ورفاقه على العدو، وهو البيئة الافتراضية، واستطاع إحراج العدو من خلال توثيق تجاوزاته وجرائمه. والأهمّ أنّ الشهيد وثّق جميع أنشطته وطروحاته وأفكاره المتقدّمة على وسائل التواصل الاجتماعي كمادّة للاستفادة والتدريب عن بعد.

ثامنًا: قَبول جميع الاتجاهات النضالية الفلسطينية، من دون استثناء، وعدم التحزّب، مع وضوح الهوية المقاوِمة التي كان يتبنّاها الشهيد، وجعْله الحجة القوية والدليل وثقافة الحوار من أولويات برنامجه، فهو الذي قاد ونظّم

أكثر من حراك ضد الانقسام الفلسطيني الفلسطيني، وهو الذي كان من أهم نشطاء الضفّة الغربية إبّان انتفاضة القدس والتي سُمّيت بالانتفاضة الثالثة (مع التنويه إلى محاربته الشديدة لما أنتجتْه اتفاقيات أوسلو ومشروع دايتون من سلطة محلية فلسطينية متعاوِنة مع الاحتلال).

تاسعًا: النفس المحبَّبة المتواضعة التي كانت ترتبط بالشباب الفلسطيني من دون تكلّف، وتُقدّم المخزون الهائل والموسوعي المتجمّع في عقل الشهيد بأسلوب مبسّط حينًا، وعميق حينًا آخر. وهذه ميزة أخرى ميّزت الشهيد، وهي الإتقان والحرفية في نقْل الفكر والثقافة حسب سعة الجمهور المتلقّي، فلكلّ مقام مقال.

عاشرًا: طروحاته المتقدّمة في توضيح فلسفة الشهادة، إن من خلال الثقافة والفكر الإنساني، أو من خلال المُعتقَد الذي تراه عنده حسينيًا وكربلائيًا بامتياز. ومن الواضح من خلال تحليلاته أنّه فَقِه الشهادة كما هي، فهو لم يقرنها إلا بفعل الشهيد، وعاقبة هذا الفعل، وتاليًا لم يكن نخبويًا في طرح مفهوم الشهادة، بل كان مدافِعًا ومؤسِّسًا لقناعاته التي كان يطرحها، وهي أنّ الجهاد والبندقية هما معيار الهوية للمثقّف، ومن دون العمل الجهادي يصبح المثقّف المناضِل بلا هوية. هذا المسار من ربط القول بالفعل هو

الطريق الذي سلكه الشهيد في آخر ساعات عمره الشريف؛ حيث طبّق نصائحه وأقواله فعليًا، فكان المثقّف المشتبِك الذي خَتَم حياته بشهادة راقية تضعه في مصافّ الرموز، وتعلنه أيقونةً للعمل المقاوِم الذي ينبغي أن يدرس هذه الشخصية الفذّة جيدًا، ويستخلص منها العِبر التطبيقية الضرورية للنهوض بالجهاد في فلسطين.

في تحليلٍ لدلالات ألفاظ الشهيد باسل الأعرج، وعلى الرغم من غزارة ما كتبه وحاضَر به، فإنّ الشهيد باسل أخفى الكثير في طيّات سطوره (لأهداف منهجية ترتبط بمنظومة طرْح نظريته «المثقف المشتبِك»).

وكعادة المفكّرين الأفذاذ، لم يُسمح لأفكاره حول نظرية المثقّف المشتبِك أن تتوقّف عند حدّ الخلاصة أو النتيجة المتحصّلة من طـرْح النظرية وحشْد الشواهد والدلائل لتعزيزها. فهو بذكائه المبدِع كان يعرف ما يريده من البداية، وهذه المعرفة جعلتْه يفكّر إستراتيجيًا، ويعتمد التجزئة المرحلية لطرْح الأفكار التي تحتويها هذه النظرية.

ولقد وجدْنا في ذلك خصوصية تُميّز طريقة الشهيد باسل في التلقين والتقنين، بمعنى أنّ الشهيد باسل كان يمتلك نظرية متكاملة لموضوعة المثقّف المشتبِك، لكنّه اعتمد أسلوب

التدرّج المعرفي في الكشْف عنها؛ حيث طرَح في البداية رؤيته وتحليله لمدارس حرب العصابات، وفنَّدها مدرسةً مدرسة، وبـأسلوب تلقيني جميل.

ثـمّ ناقَش المصطلحات، وعَـمِـل على تشريح الواقع الفلسطيني الاجتماعي والمعرفي والمقاوِم، راصدًا إيجابياته وسلبياته، واضعًا مجموعة من المقترحات والبدائل التي ترفع من أثره في الفعل والإنتاج. ثم بدأ يقدّم نظريته بندًا بندًا، مشفوعة بشواهد ودلائل مفحمة.

وفي المرحلة الأخيرة، قدّم من خلال هذه النظرية أطروحة عملية عمل على تنفيذها وإدارتها شخصيًا، منذ انطلاقة انتفاضة القدس، وتوقّف بشكل نهائي عن التدوين؛ فحيث يبدأ التطبيق تصبح النظرية قانونًا، أو بروتوكولًا مرجعيًا للتطبيق.

كان لسكوت الشهيد باسل في هذه المرحلة دلالة واضحة على أنّ فكرة المثقّف المشتبِك ليست نظرية فحسب، بل هي تجْمَع النظرية بالتطبيق، وعندها يصبح المثقّف مشتبكًا والمشتبك مثقّفًا، وهنا دخل الشهيد باسل المرحلة ما قبل النهائية من نظريته للإجابة عن السؤال الأهم: «ماذا بعد المثقف المشتبِك؟».

لهذا السؤال جوابٌ واحدٌ أفصح عنه الشهيد باسل في وصيّته؛ حيث اعتبر أنّ فعل الشهيد هو كلّ قوله، وأكّد على يقينه بما هو ذاهب إليه بعد القتل والشهادة: « بلا ذرّة رياء».

إنّ المثقّف المشتبِك هو آخر المراحل على طريق «المقاوم الثوريّ» التي تسبق أهمّ فكرة كان يهدف لها الشهيد باسل، وهي تحوّله عبر الشهادة الحمراء إلى إنسان كامل.

وفي ذلك قال الشهيد بكلمات واضحة وصريحة:

أوّلًا: «الإنسان الكامل» هو توصيف فلسفي لنموذج فريد جدًا من الثوّار الذين عرفتْهم الإنسانية.

ثانيًا: يرى الشهيد باسل أنّ مرجعية «الإنسان الكامل» ليست أوروبية، بل هي عالمثالثية/جنوبية[1]، رمزها الإمام الحسين والسيد حسن نصر الله وتشي غيفارا وستيف بيكو وفرانز فانون وغسان كنفاني ووديع حداد؛ الذين شكّلوا – برأيه - نموذجًا للتكامل بين المقاومة والوعي، بين المقاومة كعلم وحقل معرفي والوعي المقاوِم، وهذا ما أعطانا المثقّف المشتبِك. الفكرة تتمحور أساسًا حول تصوُّر فلسفي للإنسان ومكانته ووظيفته الكونية، وهو ما يستتبع إما إيمانًا بِحُرّية

(1) إشارة إلى أن منبع الفكرة من العالم الثالث، أو دول الجنوب بحسب التقسيم الإمبريالي للدول والشعوب (شمال وجنوب).

الإنسان ومساواة بين البشر، أو عبودية وخضوع ولامساواة، ولم يكن بلا معنى اقتباس الشهيد باسل مثلًا لكلام الإمام الحسين في رسالته من السجن: «ألا إنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركّز بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة».

ثالثًا: المثقّف المشتبِك هو صاحب وعي مقاوِم يدرك حقيقة وأهمية المشروع الذي يناضل من أجله، وارتباطه بالمشروع الأكبر على المستوى الإنساني؛ تغيير العالم.

كان الشهيد باسل الأعـرج ظاهرة، فهو باحثٌ اختصّ في البحث عن تاريخ الثورة الفلسطينية، وفي إقامة جولات معرفية في تاريخ المقاومة، وهو الباحث الذي كتب المادة الأساسية من مرجعيات وبحث لبرنامج «باص47» الذي يُبثّ على التلفزيون الفلسطيني. عُرِفَ منذ العام 2009 بصفته ناشطًا ومحرّكًا أساسيًّا لعددٍ كبير من الاعتصامات والمظاهرات الاحتجاجية ضد سلطات الاحتلال الصهيونية، واتفاقية أوسلو، ومحاربة التطبيع، ومقاطعة البضائع الصهيونية.

لذلك قاد حراكًا شبابيًّا، لم يكن ليقتصر على اقتحام متجر «رامي ليفي» الاستيطاني، ولا على تنظيمه لرحلات ميدانية بهدف التعريف والربْط بالأرض الفلسطينية المحتلة، فالعديد من مبادراته الوطنية والفكرية خدمت غايته تلك؛ كأن يتصدّر

المظاهرات الشعبية ضد الاحتلال، ويكون أول المحتجّين على زيارة وزير دفاع الاحتلال السابق «شاؤول موفاز» في العام 2012، إذ تعرّض للضرب من الأمن، وأُصيب بجراح.

بدأ منذ العام 2012 ينشط بشكل مكثّف في التدوين على صفحات التواصل الاجتماعي، ونشر مجموعة من التدوينات التي لاقت رواجًا وانتشارًا لِعمْقها وغزارة معلوماتها المستمّدة من ثقافته الموسوعية ومعلوماته الغزيرة في التاريخ الفلسطيني، ويُعتبر مقاله المُعَنْوَن بـ«عِش نيصًا وقاتِل كالبرغوث» أحد أشهر تدويناته رواجًا.

شكّل باسل سبقًا اجتماعيًّا في نسيج الثقافة والسلاح، فلم يشفِ القلم وحده غليل الشهيد باسل الأعرج، فكان عليه تقديم الكثير في ساحة المعركة بصفته مقاتلًا فرديًّا. إنّ قناعته التي أعرب عنها تمثّلت في أنّ «القتال الفردي» هو بديلٌ عن غياب الانتفاضات الجماعية، وجاء ذلك في زمن صعب؛ إذ كانت الضفة الغربية تشهد «مرحلةً ذهبية» بالنسبة إلى الاحتلال فيما يخصّ التنسيق الأمني مع أجهزة الأمن الفلسطينية. شكّل الشهيد نموذجًا جديدًا يختلف عن النماذج المعروفة في التنظيمات الفلسطينية التقليدية، ويتميّز بالمرونة العالية، ويمكن لهذا الشخص النموذج أن يضمّ في شخصه أهم ميزات عناصرٍ من حماس وفتح والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية

وغيرهم. فهو يُعتبر أول شهيد يرتقي في عملية عسكرية دون أن يتبنّاه أيّ فصيل بشكل رسمي، وهذا يدلّل على أهمية الشهيد باسل ورفاقه الـ 285 الذين سبقوه في انتفاضة القدس في الفترة الواقعة بين شهر أيلول 2015 وحتّى الآن.

يُعتبر الشهيد باسل شاهدًا على المرحلة الصعبة التي كانت قد وصلَتْ إليها الفصائل جميعها في السنة التي سبقت استشهاده، لكوْنه غير منتمٍ إلى حزبٍ معيّن، فقد أكسبه ذلك تأييد جميع الفلسطينيين، وعشق الملايين من النشطاء والمقاوِمين ودُعاة التحرّر. فالشهيد باسل الأعرج كان صنفًا خاصًا من المقاومين، مارَس المقاوَمة بأشكالها الشعبية والجماهيرية والعسكرية كافّة، وكان قد سبق ذلك بمشاركته في معركة الوعي من خلال تعريف الجيل الناشئ بالقضية الفلسطينية، وأهمّ المحطات التي مرّت بها في التاريخ القديم والحديث.

بفكره وثقافته الموسوعية، عرف الشهيد باسل كيف يُخرج الإيجابيات في مجالات العمل المقاوِم والنضالي الفلسطيني، ويُطعّمها بأفكار جديدة، أو يُوَسّعها كمفهوم لتصبح ماثلة بالتفاصيل أمام المهتمّين المتخصّصين أو العامّة من الجمهور.

في المقابل، لم ينسَ الشهيد بنظرته الناقدة عند مناقشته للسلبيات أن يطرح البدائل، فلم يتجمّد أو ينتقد لمجرد النقْد، وهذه خصوصية الشهيد باسل الذي يعتبر أنّ دور المثقّف المشتبِك هو ملاحَظة المعوّقات والآفات والسلبيات التي تعيق النضال ودراستها، وتقديم أطروحات وافية وجدّية لا تغرق في التنظير، بل تجعل من هذه التجربة مدماكًا جديدًا في خبرة المثقف المشتبِك، وأيّ سائر على طريقه، لتمكّنه من الارتقاء بمشروعه وتلافي تكرار السلبيات. وسنعرض الأفكار التي ناقشها الشهيد باسل لجعْل أطروحته حيّة وقابلة للنقْد أو النقاش، لتنميتها ورفْدها بأفكار المنظِّرين الآخرين الذين قد يتفقون أو يختلفون معها، إلا أنّ ميزته هذه قدّمت للجمهور مادة جاهزة للتفكير والعمل والتطوير.

في هذه الفصول مختاراتٌ
ممّا تحدّث به باسل الأعرج أو كَتبه.

1. المقاومة

1.1. الصراع

إنّ هذا صراعٌ وجودي لن ينتهي إلا بنهاية أحد الطرفين، أو رضوخه لاشتراطات الآخر، وفعليًا لم نترك وسيلة في محاولة حلّ الصراع إلا استخدمناها، ليتكشّف لنا أنّ الصراع العنيف المباشر كأساس لطبيعة الصراع هو الحلّ مع ترْك مساحات لكل وسائل وأدوات وإستراتيجيات متاح استخدامها في وضعنا.

لسنا هنا في صدد مناقشة تحديد أفضل وسيلة لحسْم الصراع، لكن نتفق جميعًا أنّه من حقّ الفلسطينين استخدام كلّ الوسائل المُتاحة لهم في ردّ العدوان عليهم والدفاع عن أنفسهم، وتُحدّد قواعد الاشتباك وأخلاقياته عبر الصراع القائم والمعادلات والتوازنات التي يتمّ فرضها.

إنّ هناك مقولة «تَحوُّل الـصراع إلى صراع ديني»، ولا أدري ما المقصود بهذا. وقد اتّفقنا مسبقًا أنّه صراع وجودي استعماري احتلالي استيطاني، يقوم على محاربة كلّ عناصر هويّتك ويهاجمها، فإنّ الدين جزءٌ منها، ولا تخشوا أن تقولوا إنّ هنالك عداءً للإسلام من عدوّنا (عشرات المرّات سمعناهم يشتمون النبيّ محمّد)، هذه حرب إبادة على كلّ عناصر الهوية، والادّعاء بأنّ الصراع لم يكن وجهٌ من أوجهه دينيًا فيه حرف وتجديف عن الحقيقة.

يجب الإقرار بأنّه هنالك عداءً وكراهية لليهودية في داخل أغلب الفلسطينيين، ومن يتحمّل المسؤولية هذه هو من استخدم اليهودية ورموزها وأساطيرها ومقولاتها، وكتبها لتمرير وتبرير المشروع الاستعماري، وليس الضحية. ومن المُجحف استحضار صورة غولدشتاين ومجزرته في الخليل ومقاربتها أو تشبيهها بعملية الشهيدين عُدي وغسان أبو جمل داخل الكنيس اليهودي في القدس، فإنّ أطرافها مختلفون؛ معتدٍ ومُعتدى عليه، حتى لو تشابهت الصورة.

الصراع «الداخلي» فعليًّا لا يهمّ الاحتلال أبدًا ما دام التنافس يقوم على من يستطيع أن يقنع الاحتلال وأميركا وأوروبا أنّه الأقدر على القيام بالدور الوظيفي للسلطة.

يتمّ استحضار داعش في محاولة لثني المجتمع عن خوض انتفاضة/ ثورة، عبر القول إنّ المصير هو قدوم ظاهرة داعش، فإنْ كان البعض يحمل في داخله تخوّفًا حقيقيًّا على المجتمع فـإنّ البعض الآخـر يحاول الحفاظ على مصالحه الذاتية وامتيازاته في المنظومة الحالية.

حرب [محاربة] ظاهرة داعش لا تتمّ بالاستنكار والتخوف، بل بإيجاد نموذج ثوري واعٍ قادر على إعـادة بثّ الروح الوحدوية في كلّ المنطقة ضد عدو مشترك، وهذا سيخفّف من الخزّان البشري الاحتياطي المُحتمَل لأنْ ينضمّ إلى داعش ليتحوّل إلى خزّان بشري داعِم للحرب ضد العدو الصهيوني، وفاتورة الحرب ضد العدو هي الأقل ثمنًا من أي حرب أخرى في المنطقة.

1.2. دور السلطة في الصراع

لم يكن أمجد السكري هو أول عناصر الأجهزة الأمنية في هذه الانتفاضة الذي يقوم بعملية عسكرية ضد الاحتلال، فقد سبقه أبطال في هذه الانتفاضة ممّن لم يعطوا الدنيّة في شرفهم العسكري وصانوا الأمانة.

كان سؤال الاحتلال مع نهاية انتفاضة الأقصى هو كيف بالإمكان الاعتماد على عناصر الأجهزة الأمنية الفلسطينية في حماية أمن الاحتلال، ولم يكن السؤال حول الأجهزة بل حول العناصر.

كان جواب هذا السؤال عبر الخطة التي وضعها دايتون في إعادة تشكيل الأجهزة، حيث تمّ إبعاد عدد كبير من الضباط عنها ممّن لهم تاريخ عسكري ونضالي سابق. كانت السياسة لإبعاد هؤلاء ممّن لا يأمن العدو جانبهم هي فتح مجال التقاعد براتب تقاعدي كامل، ليتقاعد عدد كبير جدًا من ذوي الخبرة العسكرية، وممّن يحملون حمولة أيديولوجية لها زخْمها، وممّن يحملون ذاكرة مشبعة بمواقف البطولة والتضحية من المعارك المتتالية في ساحات المواجهة المختلفة.

في ظلّ كلّ هذه العملية من القصف الذهني المتتالي، خرج بعض منتسبي الأجهزة ممّن رفضوا هذا، ليكون دليلًا على مناعة أي منظومة، ولتحمل دلالة مُهمّة أخرى، ألا وهي أنّ أيّ أداة قمع تحمل في داخلها بذور ثورية ستدفع بالناس إلى التمرد.

لم تكن رصاصات أمجد لتخترق أجساد جنود العدو فقط، بل جاءت لتستقرّ أيضًا في رأس عملية التنسيق الأمني ومشروع

دايتون، لتلحق برصاصات سبقتها إلى هناك، ورصاصات ستلحقها أيضًا.

اليوم، أمجد يخرق قواعد وأصـول الـصراع بين أطراف السلطة الفلسطينية، وسيتمّ إنكاره واتّهامه باتّهامات ما أنزل الله بها من سلطان، لكنّ كلّ هذا لقتل النموذج أمام عناصر آخرين في الأجهزة.

دور السلطة في قيادة المجتمع من خلال مؤسسات بيروقراطية تعمل بمحدّدات اتفاق أوسلو، من حيث إنّ السلطة عملت على تشويه الرموز الوطنية، ولم تكتفِ بإفراغها من مضامينها، في محاولة لتشويهها في عقول الجيل الجديد، ما أدّى إلى انتشار ثقافة الخلاص الفردي على حساب المصلحة العامة. وهنا يبرز دور المنظمات غير الحكومية في التخريب الناعم. وهنا، من الضرورة أن يعمل القادة الشبابيّون في داخل الحراك الشعبي على إعادة بناء القيم الوطنية الجماعية، لإعادة النهوض بالشعب، بعد أن بدأت معاول قوى التخريب المحلية والاحتلالية بهدمها.

1.3. تكتيكات حرب العصابات

المقاومة الفلسطينية هي تشكيلات عصابية؛ إستراتيجياتها تتبع لمنطق حرب العصابات، أو الحرب الهجينة التي أصبح العرب والمسلمون ساداتها في تجاربنا في أفغانستان والعراق ولبنان وغزة. لا تكون الحرب وفق منطق الحروب النظامية والدفاع عن نقاط ثابتة وحدود أبدًا، بالعكس تماما أنت تقوم بجرّه إلى الكمين، ولا تلزم موقعك الثابت لتدافع عنه، أنت تقوم بالمناورة والحركة والانسحاب، والهجوم على جوانبه ومن الخلف، فلا تقيسوا أبدًا على الحروب النظامية.

في حروب العصابات، أنت تسمح لعدوّك أن يتحرك كما يريد لكي يقع في كمينك فتضربه ضربتك، أنت من تحدّد مكان المعركة ووقتها، يعني من الممكن أن ترى صور من ساحة الكتيبة أو السرايا، أو الرمال، أو شارع عمر المختار، إياكم أن تهدّ عزيمتكم، فالأصل المعركة بنتائجها الكلية، وهذا استعراض لا أكثر.

لا تقوموا بنشْر دعاية الاحتلال أبـدًا، ولا تساهموا في استدخال الهزيمة، هذه يجب التركيز عليها، فسرعان ما سنبدأ بالحديث عن توغّل واسع في بيت لاهيا والنصيرات مثلًا، لا تقوموا أبدًا بنشْر الفزع، وكونوا عونًا للمقاومة، ولا تقوموا

بنشْر أي خبر يقوم الاحتلال ببثّه (وانسوني من أخلاقيات وحياد الصحافة، فكما الصحافي الصهيوني مقاتِل أنتَ أيضًا مقاتِل).

سيقوم العدو بعمليات نوعية تكتيكية لاغتيال بعض الرموز، وكلّ هذا ضمن الحرب النفسية، مَن مات ومَن سيموت لن يؤثّر أبدًا على منظومة وتماسُك المقاومة؛ لأنّ بنية وتشكيلات المقاومة ليست مركزية، بل أفقية ومنتشرة، لكنّ الهدف هو التأثير على حواضن المقاومة وأهل المقاومين، وهؤلاء هم فقط من يستطيعون التأثير على رجال المقاومة.

خسائرنا البشرية والمادية المباشرة ستكون أكثر بكثير من العدو، وهذا طبيعي. فحروب العصابات تعتمد أصلًا على الإرادة والعنصر البشري ومدى الصبر والتحمّل، ونحن أقدر منهم بكثير على تحمّل الفواتير، فلا داعي للمقارنة أو أن تهتز لحجم الأرقام.

لم تعد حروب اليوم حروبًا وصدامات جيوش فقط، بل هي صراع المجتمعات، لنكن كالبنيان المرصوص، ونلعب مع العدو لعبة عضّ الأصابع، يا مجتمعنا يا مجتمعهم!

في ظلّ ظروفٍ معيّنةٍ، تستطيع السّيارةُ المفخَّخةُ أن توازي في فعلِها ووظيفتها فعْلَ ووظيفة سلاح الطّيران، لقدرتها على

استهداف المواقع الحضريّة الحيويّة والحسّاسة، واستهداف المقرّات الرئيسة للتّحكم والسّيطرة، بالإضافة إلى قدرتها على إرهاب الجمهور، كما أنّها تتماشى مع نظرية القصف الإستراتيجي.

اتّسم نمط الحرب على فلسطين على طوال تاريخها في الصّدامات المتتالية مع الاستعمار الأوروبيّ بنمط قتالٍ أوروبيّ، يلجأ إلى التّحصين وبناء القلاع. في المقابل، اتّسم نمطُ العرب في الدّفاع عن فلسطين بنمطِ الإغارة والاعتماد على السّرعة، وخفّة الحركة والمواجهة. فكان لا بدّ لصلاح الدّين والظاهر بيبرس أن يقوما بهدم القلاع الأوروبيّة التي تمّ بناؤها على السّاحل الشّامي لمنْع إعادة احتلال تلك المدن، والركون إلى حصونها المنيعة من قِبل الأوروبيّين.

بالعقلية الأوروبيّة نفسها، أراد الصهاينة بناء قلاع لهم في فلسطين عبر المستعمرات، وكذلك حافَظ أهل البلاد على نمط قتالهم نفسه، ونرى هذا بوضوح في حرب العام 1948. وقد استطاعت خطط الفلسطينيين العسكريّة في حرب العام 1948 إفشال مهمّة المستعمرات المتقدّمة كنموذج لقلاع عسكريّة، وهذا ما وصل له «بن غوريون» في استنتاجه بأنّه لا أهمية عسكريّة لتلك المستعمرات، بل أهمية سياسية، وإنّ سكّان

تلك المستعمرات تحوّلوا إلى عبء على الجيش، ورهائن في أيدي الفلسطينيين أثناء الحرب.

مع بداية الحرب، بعد قرار التّقسيم، اندفع العرب إلى فصْل مستعمرات القدس عن الثقل الديموغرافي للعدوّ، والموجود في السّاحل الفلسطيني. لذلك، شهد باب الواد منذ اليوم الأول وحتى الهدنة وترسيم الحدود أعنف المعارك وأشدّها، ومن ثمّ فرْض الحصار على كلّ مستعمرة، وجرى فصْلها عن باقي المستعمرات في القدس، ومنْع التّواصل فيما بينها. وقد جدّ العدوّ كلّ الجدّ في محاولة خلْق هذا التّواصل الجغرافيّ، إلا أنّهم فشلوا بفضْل الإستراتيجية العسكريّة التي وضعها الحسيني «الشيخ أمين الحسيني»، واستكملها القائد «عبد الله التّل» بعد استشهاد الحسيني.

1.4. عِش نيصًا وقاتِل كالبرغوث

منذ متى لا أدري، ولماذا أيضًا نَمَت علاقة غريبة بين الفلسطيني (بالمعنى الواسع ليشمل بلاد الشام وليس بالمعنى الانتدابي) وبين النيص؟ هل كان فعلًا العداء أم أنّ الأمر له علاقة بتخريب النياص لمزروعات الفلاح؟

والنيص هو حيوان ليلي يعيش تحت الأرض داخل جحر (طبيعي المنشأ)، كبير نسبيًّا، وله مداخل ومخارج عدة، وأنفاق طويلة جـدًا، وعلى طوال الأنفاق هناك ما يشبه استراحات. يستخدم النيص في تنقّله ودخوله وخروجه طرقًا محدّدة ومعيّنة عدّة، يبدو كأنّها مدروسة، ويملك نوعًا غريبًا من البارانويا، أو ما نسمّيه فلسطينيًا بالحسّ الأمنيّ.

للنيص حضورٌ واضح جدًا في الذاكرة الشعبية الفلسطينية، كذلك في الرواية الفلسطينية، يصف الفلسطيني النيص أنّه كائنٌ عجيبٌ، حاك حوله الفلاحون قصصًا لا تنتهي.

ويفيد أول درسٍ في الصيد أنّه عليك أن تتعلّم جيدًا سلوكيات الطريدة، فراقَب الفلسطيني نيصه جيّدًا وتعلَّم كل شيء عنه، ولا بدّ للصياد أن يتأقلم (ولا يتكيّف)، مع نمط حياة وسلوكيات طريدته ليستطيع اصطياده، لكن ما حدث أنّ الفلسطيني تطبّع تمامًا بأطباع النيص، خصوصًا وقت الخطر، فكان أن أصبح نيصًا في عيشه.

يملك البرغوث إستراتيجية قتالية وتكتيك، وتقنيات مذهلة، فهو يخزّ ويقفز، ثم يعاود الوخز، ويتجنّب بذكاء شديد اليد أو القدم الساعية إلى سحْقه، إنّه لا يستهدف قتْل خصمه – الكلب مثلاً - بمعنى قتْل كامل منظومة العدو، بل إنهاكه

والحصول على غذائه منه، وإزعاجه وإثارته، ومنْعه من الراحة، وإتلاف أعصابه ومعنوياته. ولتحقيق ذلك لا بدّ من الزمن اللازم للتكاثر. إنّ ما يبدأ وكأنّه عدوى موضعية سيصبح وباءً شاملًا عن طريق التكاثر، وتقارُب المناطق المهاجمة واندماجها.

يقول «ماو تسي تونغ»[1]: «عندما يتقدّم العدو فإننا نتراجع، وعندما يخيّم نناوش، وعندما يتعب نهاجم، وعندما يتراجع نطارده»، ويقوم تنظير ماو تسي تونغ لحرب العصابات على ما يشبه «حرب البرغوث».

حلّ ماو تسي تونغ معضلة سؤال «كيف تستطيع أمّة غير صناعية أن تنتصر على أمّة صناعية؟». وكان حلّ ماوتسي تونغ بأن قام بالتشديد على العناصر غير المحسوسة، فالدول القوية صاحبة الجيوش النظامية تركّز عادة على الأمور المحسوسة والأسلحة والشؤون الإدارية وعدد الجنود، أما ماو تسي فقد شدّد على: الزمن والمجال والإرادة، فهو يتجنّب المعركة متخلّيًا عن الأرض ويكون بهذا قد قايض المجال بالزمن، واستعمل الزمن لخلق الإرادة وذلك هو جوهر حرب العصابات.

(1) زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ 1935 حتى وفاته.

وعلى سبيل التشابه، فإنّ العصابات تقوم بحربها تمامًا مثل البرغوث، ويعاني العدو القوي النظامي السلبيات ونقاط الضعف نفسها التي يعاني منها المُضيف، أو المُعيل، في حالة البرغوث، مساحة كبيرة للدفاع عنها، عدو شديد الصغر، ومنتشر في كل مكان، وسريع الحركة؛ بحيث يصعب القبض عليه، فإن دامت المعركة ما يكفي من الزمن فإنّ المضيف لا بدّ أن يسقط في ساحة المعركة بسبب الإجهاد وفقر الدم، دون أن يجد ما يهاجمه.

يشرح «روبرت تابر»[1] الأمر على هذا النحو: «ومِن الناحية العملية، فإنّ الكلب (المضيف أو المعيل) لا يموت بسبب فقر الدم، بل لأنّه يضعف باستمرار بسبب انتشاره إذا استعملنا المصطلحات العسكرية، وبسبب عدم شعبيته إذا استعملنا المصطلحات السياسية، وبسبب زيادة الكلفة إذا استعملنا المصطلحات الاقتصادية، وفي النهاية فإنّه لا يعود قادرًا على الدفاع عن نفسه. وفي هذه الفترة، يكون البرغوث قد تكاثر وتحوّل إلى وباء بفضل مجموعة طويلة من انتصارات صغيرة، استطاع فيها كلّ واحد أن يمتصّ قطرة من الدم.» فعِش نيصًا وقاتِل كالبرغوث.

(1) كاتب وناشط وصحافي أمريكي، اشتهر بكتابه «حرب المستضعفين» والذي يتناول فيه حرب العصابات وأهمّيتها.

1.5.الانتفاضة

في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات، انطلقت ثورة الكفّ الأسود التي كانت أحد أهم عوامل ثورة العام 1936 في فلسطين، وتمّ إخضاعها تمامًا، والقضاء على عناصرها خلال 4 شهور، فقضوا ما بين شهيد وأسير وطريد. لم يزهد الناس وقتها في خيار الكفاح المسلّح، ولم يجترّوا الخطاب الاستعماري بأنّ الكفاح المسلّح لا طائلة أو فائدة منه، بل راجعوا التجربة وحلّلوها، وانطلقوا إلى ثورات أخرى ليتفادوا أخطاءهم. في المقابل، يجترّ الفلسطينيون مقولة أنّ الانتفاضة الثانية قد جلبت الدمار؛ بحيث أصبحوا يزهدون في أي انتفاضة قادمة، خوفًا من النتائج نفسها.

لا أدري متى جلس الفلسطينيون ليقيّموا نتائج الانتفاضة الثانية بشكل علميّ بحت، وليقيّموا نتائج التجربة العسكرية لها.

وحتى الآن، لم تتوقف الحرب علينا، والعنف الرمزي والقمع الخفي هما سيّدا الموقف. وعادة الذي يحدث عند فشل أي تجربة يقوم النقد على مراجعة كيفية التطبيق، وليس النظرية، أو الأيديولوجيا التي تقف وراء التجربة.

لم تكن النتائج كما يتمّ تصويرها لنا. ألم تتخلّص غزّة تمامًا من أيّ مستوطن؟ ألم تصل غزّة إلى مرحلة التخندق، أو حتى مرحلة الحرب الهجينة كنتيجة للانتفاضة الثانية؟ ألم تُدكّ تل أبيب والقدس بصواريخ كانت تجاربها الأولية تشبه فعليًّا علب الفليت[1]؟ ألم يتمّ تفكيك مستوطنات في الضفة الغربية (جنين ونابلس) لأنّ الاحتلال لم يعد قادرًا على حمايتها ولم يعد يتحمّل تكلفة استمرار وجودها؟ ألم تكلّف الانتفاضة العدو مليارات الشواكل[2]؟

ولا تدري ما قامت به الانتفاضة من وقْف ويلات كانت تنتظر شعبنا. شخصيًا، أؤمن أنّ الانتفاضة أخّرت لفترةٍ عمليةَ تهجيرٍ جديدةٍ كان يُعدُّ لها.

1.6.الكفاح المسلّح

إذا قرّرنا مثلًا أن نعيد دراسة التجربة العسكرية في الانتفاضة، فإنّ تسليح الانتفاضة لم يكن هو السبب فعليًا بالآثار السّلبية لها، بل هنالك عوامل أخرى هي التي أدّت إلى هذا:

(1) مبيدات حشرات.

(2) جمع شيكل وهو العملة الإسرائيلية.

- القيادة لم تكن على قدْر المسؤولية، ولم تستطع أن تنظّم المجتمع، وتُعِدّه لحرب شعبية طويلة الأمد.
- حمل البعض فهمًا ساذجًا للكفاح المسلّح، وقاموا بتسطيح شديد لماهيّته، لدرجة أنّه لا يؤثّر على توتر السطح وفق عبارة «احمل بارودة وطُخ مين مانْعك».
- عدم وجود الوعي الكافي والتحضير النفسي والاجتماعي.
- غياب التنظيم للقوّات المقاتِلة، والتي أفرزت قيادات من دون كفاءات بعد تصفية الصف الأول.
- الحاضنة الاجتماعية غائبة تمامًا، وهنالك مسافة شاسعة ما بين الجماهير والعمل العسكريّ.
- غياب التحضير والتجهيز والإستراتيجيات والتكتيكات القتالية، فالهدف كان سقْفه أوسلو (الوطن المختزل في غزة والضفة).
- عدم اقتناع البعض أنّ الكفاح المسلّح بإمكانه تغيير وقائع على الأرض، وإنّما استخدامه لتحسين شروط التفاوض لا أكثر.

لم يزهد الناس في خيار الكفاح المسلّح، ولم يجترّوا الخطاب الاستعماري بأنّ الكفاح المسلّح لا طائلة أو فائدة منه، بل راجعوا التجربة وحلّلوها، وانطلقوا إلى ثورات أخرى ليتفادوا أخطاءهم. في المقابل، يجترّ الفلسطينيون مقولة أنّ الانتفاضة الثانية قد جلبت الدمار؛ بحيث أصبحوا يزهدون في أيّ انتفاضة قادمة خوفًا من النتائج نفسها.

عادة، عندما تسمع أحدهم يتكلم عن الدمار والويلات والخسائر وعـدم وجـود فوائد، هو يقوم بإعادة إنتاج البروباغاندا الصهيونية لكن بِلُغته. والبروباغاندا هذه لها آليات عمل متعددة، تبدأ في تغيير الفضاء الفلسطيني، ولا تنتهي عند الدعاية الرسمية للسلطة.

لم تكن النتائج كما يتمّ تصويرها لنا. ألم تتخلّص غزة تمامًا من أي مستوطن؟ ألم تصل غزة إلى مرحلة التخندق أو حتى مرحلة الحرب الهجينة كنتيجة للانتفاضة الثانية؟ ألم تُدكّ تل أبيب والقدس بصواريخ كانت تجاربها الأولية تشبه فعليًّا علب الفليت؟ ألم يتمّ تفكيك مستوطنات في الضفة الغربية (جنين ونابلس) لأنّ الاحتلال لم يعد قادرًا على حمايتها، ولم يعد يتحمل تكلفة استمرار وجودها؟ ألم تكلّف الانتفاضة العدو مليارات الشواكل؟ ولا تدري ما قامت به الانتفاضة من وقف ويلات كانت تنتظر شعبنا؟

في ظلّ أدوات الضبط الاستعمارية المفروضة علينا، والظروف الموضوعية التي تحيط العمل المقاوِم، وتدفع باتجاه استخدام أدوات بدائية في القتل، لطالما ارتبطت بالمستضعَفين فسكّان أميركا وأستراليا الأصليون كانوا يرون استخدام السلاح الأبيض شجاعة أكبر وفضيلة من استخدام السلاح الناري.

ألم تنطلق في أواسط الثمانينات ثورة السكاكين في فلسطين؟ هذه أسلحة المستضعَفين وإن أردنا محاكمتها أخلاقيًّا، فإنّها أكثر أخلاقية وإنسانية من الأسلحة المتطوّرة الحديثة؛ من مثل البراديتور، والصاروخ الموجّه، تلك الأسلحة الحديثة جاءت كأدوات لإبادة البشر وليس لحسْم الصراعات، ولتقليل الشعور بالذنب والمسؤولية الأخلاقية والضغط النفسي.

جرى وصْف المقاومة الشعبية التي يقودها ويشارك فيها بعض الشابات والشباب في القرى المعزولة في فلسطين من قِبَل بعض المتهكّمين بالمقاومة الجميلة. وبعدها، تبدأ سلسلة من الردح اللي ما بتفهم منو إشي إلا انو إنت المسؤول عن وقف الكفاح المسلح... طيب يا عمّي على راي ستّي هَيْ الميدان يا حميدان وَرْجينا مراجلك وعيب عالّلي مانْعَك.

1.7. الهبّات الشّعبية

من المؤكّد أنّ أيّ هدوء يصيب الحالة الشّعبية ستتبعه حالةُ قمعٍ شديدة جدًا من قبل السّلطة الفلسطينية والعدوّ الصّهيوني.

إذا وقع الهدوء سيكون هناك جرد حساب طويل وصعب لكلِّ محاولات التمرد في الفترة السّابقة. والأسوأ أنّ المجتمع سيكون قد انكفأ على ذاته، منتظِرًا مدًّا ثوريًا جديدًا، فلن تنفع كلّ مناشداتكم وقتها ولا دعواتكم. ستتلقّون وحيدين كلّ العقاب الذي سيرافقه نوعٌ من الرشوة الجماعية للشعب، عبر تسهيل الإجراءات وتخفيف القمع وتقديم الحوافز، هكذا كان يتعامل الاستعمار دائمًا.

كلّ مهتمٍ في الشّأن العامّ لا يملك إلاّ أن يتفاءل، ففي أسوأ الأحوال نقلت الهبّة الجماهيرية الحالية الوعيّ الفلسطينيّ نقلةً نوعيّةً. هي تشبه تمامًا هبّة البراق التي أسست لثورة العام 1936، وتُشبِهُ هبّة النّفق التي أسست للانتفاضة الثانية. القصد هنا أنّه حتى لو لم تستمر الهبّة الحالية، وتأخذ تطوّرها نحو انتفاضة، ثمّ ثورة، فإنّها ستكون على الأكيد قد أوصلت النّاس لضرورة الاستعداد لثورة ضخمة قادمة؛ ليكون التحضير لها تحت الأرض وبهدوء. وهذا النهج ستُعزِّزُه إجراءات العدوّ

التي ستدفع نحو تفريغ الضّفة والداخل من كلّ القيادات في الصّف الأول والثّاني والثّالث.

الأمور تتغيّر، اليوم يُخلق بشرٌ جديدون، اليوم يُبعث أناسٌ لا يقبلون الدنيّة في دينهم ووطنهم، اليوم تُقلب الصّفوف ليصبح الآخِرون هم الأوّلين والأوّلون هم الآخِرين، والقيادات التّقليديّة المحليّة التي طالما ساومت، ولم تكن بقدْر المسؤولية في طريقها لفقدان مواقعها لصالح شريحة أوسع كثيرًا تنظّم نفسها أفقيًّا ومن دون تمثيل.

توجَد اليوم في أغلب مناطق الاشتباك إجابة جديدة قديمة على سؤال «تنظيم المجتمع». شبابٌ في مقتبل العمر بمجموعات عددية صغيرة تخترق الهدوء في مناطق الاشتباك؛ لتفرض منطقها على القيادة التقليديّة.

يقوم الأمر على مبادرات صغيرة من أفراد عدة؛ لتتبعها استجابة فورية ودون تـردُّد لأبناء المناطق للانخراط في الاشتباك؛ إما للدفاع أو للهجوم. هذا النوع من العمل الفوريّ أعاد تعزيز قيم فلسطينية عميقة ومتجذرة، مثل «الرجولية والواجب»، وأعاد هذه الروح النّضالية الجماعية المسمّاة «الفزعة»، وهي التي تدفع عشرات نقاط الاشتباك التقليدية أو المستحدثة للاشتعال يوميًّا.

العفوية لا تعني أبدًا غياب التنظيم، بالعكس تمامًا، ففيها من التنظيم والدقة أكبر بكثير من أيّ نوع آخر، خصوصًا أنّها تركّز على تنظيم الاشتباك، وليس تنظيم الصّورة النهائية لجعْل تلك السّلوكيات تُنتج أكبر قدرٍ ممكنٍ من الفائدة والإنجاز ليصبّ مع كل أعمال المقاومة الأخرى في كلّ السّاحات في نهرٍ واحدٍ لتراكم الفعل والإنجاز للدفع نحو زيادة التّفاقم السّياسي والاجتماعيّ، ولاحقًا الاقتصاديّ للمجتمع.

لطالما كانت البرجوازية الفلسطينية ترى أنّ دورها هو تعبئة الشعب من أجل المقاومة، دون أن يساهم أفرادها أنفسهم مساهمة جدّية في النّضال. والبرجوازية تختلف تمامًا في طريقة تفكيرها عن الطبقات الشعبية (هذا توصيف وليس دعوة للإهانة).

روح المغامرة التي تتقن تمامًا استغلال الإمكانيات المتاحة والمتوفّرة للوصول إلى الهدف، هي ما ستدفع إلى تفاقم الأمور، وإلى استمرار الهبّة وتطورها.

لطالما سمعنا مقولات أنّ «الشّعب دائمًا يسبق القيادة»، وطبعًا القيادة هي بمجملها من البرجوازية أو ممّن يتشبّهون بها. لذلك بدأت تظهر أحاديث عن ضرورة صياغة مطالب قابلة للتحقيق لاستثمار الهبّة الحالية من قِبل هؤلاء.

من المفترض الذهاب إلى نقاش مجتمعيّ كامل، انطلاقًا من ساحة الاشتباك؛ بحيث يكون هدف النقاش تحديد أهدافٍ للمواجهة لا مطالب. والهدف الرئيس هو ضرورة استمرار الاشتباك ولو بوتيرة منخفضة؛ أحيانًا تعلو كثيرًا، وأحيانًا تعود إلى نفس وتيرتها المستمرّة. أما الحديث عن «مطالب»، فعادة ما يتبعه مباشرة الحديث عن التمثيل، أيّ سؤال «من يُمثّل الشعب ويتحدّث باسمه؟». والحديث عن التمثيل تتبعه مباشرة ممارسة سلطة على الجموع الحقيقية التي تمارس الاشتباك، وممارسة سلطة، أو امتلاكها سيدفع مباشرة للمساومة، والمساومة ستعيد إنتاج ما سبق بوجوه جديدة وأعمار صغيرة.

إنّ الفلاحين والطبقات الشّعبيّة هم الطبقات الثورية الحقيقية، وتلك الطبقات اليوم تبتدع أساليبها في التنظيم بطريقة أفقية بحتة، قادرة على توسيع الاشتباك، وقادرة على احتواء كلّ من يريد الانضمام.

الحديث اليوم عن أيّ مطالب مرفوض قطعًا، والحديث عن أي فعل مركزي وأيّام غضب أيضًا مرفوض، والحديث عن قيادة مركزية ستعيدنا إلى المربّع نفسه، وسنخسر ما قدّمنا من تضحيات.

لطالما تكرّرت في الأدبيات التّي تتناول التّاريخ الثّوريّ للشعوب بعضُ الشّخصيات الاستثنائية الجدليّة، والتّي جمعَت ما بين الثّورة والبطولة. وتتشابه حكاياتُ هذه الشّخصيات في كثير من الأحيان؛ من حيث النشأة، والظّروف، والمسيرة والنّهاية، والأهم أنّها تتشابه في كيفية تناولها، والتّعاطي معها من قبل النّاس. ففي جميع هذه الحالات، انقسم النّاس في طريقة تناولها؛ فبعضهم كانوا يعتبرون هؤلاء مجرمين مارقين خارجين عن القانون، فيما كان يعتبرهم آخرون أبطالًا استثنائيين.

تشترك النّماذج التي نتحدّث عنها بخروجها من الطّبقات الأكثر مظلوميةً وفقرًا في المجتمع ممّن يقع عليهم أكبر قدرٍ من الاضطهاد. كما أنّ غالبيتهم تتشابه في قصصهم مجموعةُ الظروفِ التي أدّت إلى خلق هذا الإنسان الجديد ولحظات الميلاد والتّحوّل.

نتحدّث عن رجال صنعت تجربتُهم الماديّةُ وعيَهم، وبدأت سيرتُهم بنبْذ المجتمع لهم؛ لينتهوا أبطالًا تغنّت بهم النّساءُ في الأعراس، وصدح الرجالُ بأسمائهم ومناقبهم، وأصبحوا نماذجَ للبطولة والتّمرد. نتحدثُ هنا عن رجالٍ لم يكونوا إلا ثوّارًا منذ اللحظة الأولى في كلّ صفاتهم ومناقبهم وبناهم النّفسيّة، امتازوا بالشّجاعة والتّمرّد والجرأة والذكاء، ولم ينخدعوا بالتّزيين ولا خضعوا للتّدجين.

2. مفهوم القهر والمقهورين

2.1. أسباب القهر

تنتهي الحرب عندما يُهزم العقل، فإذا دخلت الهزيمة العقل فأُعلن انتهاء الحرب، ويبدأ الظلم بالتفشّي عندما يقدّم المظلوم التنازل بإعطاء السلطة للظالم، السلطة على عقله، تلك السلطة يمنحها العقل البشري ويبدأ بإعطاء مبرّرات للجسد لتقديم التنازلات؛ الواحد تلو الآخر، إلى أن يصل به الحال لقبول الوضع القائم، ويبدأ ببناء فلسفة جديدة تُسمّى بـ العقل الكولينيالي، أو عقل المظلوم، أو عقل المضطهَد.

إنّ أول ما يقوم به الاستعمار هو تعريف الممكن والمستحيل للشعوب المضطهَدة، ويعاونه في ذلك عادة بعض أفراد الشعب، ويتم ذلك عبر تقنيات تدخّل مباشرة وغير مباشرة، فلا تصدّقوا

ما يتمّ قوله ونقله ومحاولة زرْعه في عقولنا، وحاكِموا المقولات وفْق المنطق وقوة التحرّر لدى الشعوب.

تتجلّى أهـمّ معالم الشعور بالدّونية وإعطاء مبررات مُقنِعة لقبول الظلم وإهانة الكرامة. ويُعتبر هذه النوع من التفكير أقوى سلاح للظالم، ويتطوّر هذا النوع من التفكير مع الوقت وقبول الواقع والانخراط في المنظومة، إلى استلهام وعي المضطهِد، أو كما وصفها مالكولم إكس بـ (زنجي البيت) بحيث يبدأ هذا المظلوم باستخدام لغة ومصطلحات الظالم، ويبدأ بالتشبّه بشخصية وشكل الظالم لاعتقاده أنّ أقصى درجات الحضارة هي شخصية هذا الرجل (ظاهرة سماع الأغاني العبرية هي ظاهرة حقيقية معبّرة عن استلهام وعي المضطهِد)، ولاحقًا يتطوّر هذا النوع من الاستلهام إلى درجة يصبح فيها المضطَهد يستخدم مصطلحات مثل: نحن، عندنا، لنا، في حديثه عن سيّده. مثال: حدث أنّني قابلت شابًّا تأثّر جدًا بالثقافة الصهيونية، فكان كلّ موضوع نتكلّم فيه يستخدم جملة إحنا عنا في الدولة.

تتجلّى أعلى لحظات التحرّر من هذا العقل - عقل المظلوم أو عقل المضطهَد - في السيطرة الكاملة على السلطة الذاتية، تلك السلطة التي لا يستطيع أحد أن يجبرك على شيء لا

تستسيغه، مثل: المأكل، والمشرب، والملابس، والقول، والعمل والموقف.

تنشأ عند أبناء المجتمعات المقهورة، والواقعة تحت الاستعمار خاصةً، علاقة ازدراء ضمنيّة للذات والآخر (داخل المجتمع)، فتصبّ على غيرهم من أفـراد المجتمع؛ حيث يعكسون العار والمأساة ضمن منهجية.

عندما يجاهر المقهور بمقولات مسيئة لغيره من الواقعين تحت القهر ذاته، إنّما هو يعبّر عن مدى شعوره بالضعف والدّونية والذنب، وذلك من أجل الحصول على توازُن نفسي، والتخلص ممّا يحيط به من توتّرٍ وانفعال.

عندما تقوم فتاة ما بصفع ذلك الجندي، أو تتجرّأ على فعل لا يتجرّأ الذكر عليه، يقوم الذكر بقياس ذلك على نفسه وعدم قدرته على الفعل ذاته، ويقارن خضوعه أمام ذلك الجندي بانتفاض تلك الفتاة؛ فيشعر بالخزي، ممّا يدفعه لاستحضار كل الإسقاطات السلبية عليها.

حاول الاحتلال الصهيوني كثيرًا زراعة هذا العقل - عقل المظلوم أو عقل المضطهَد - وتغذيته في المجتمع الفلسطيني، إلا أنّه فشل إلى حد ما في تعميم هذا العقل على كامل المجتمع، فكان ممّا منع استفحال هذا العقل في المجتمع مقصودًا حينًا

وغير مقصود أحيانًا كثيرة. فوقوف الشاب أو الطفل أو الشابة أمام الجندي المدجّج بالسلاح ورفض أوامره، وحتى السخرية منه، وعدم الانصياع له، يُعتبر خطوة من خطوات تحرير العقل من تلك السلطة التي منحناها لهم، عبر بناء أصنام لهم في عقولنا، أصنام لجندي لا يُقهر.

يزرع المتسلِّط في عقل المقهورين ثلاث عقد رئيسة:

أولًا: عقدة النقص والدّونية: هي الشعور بالتسفيل، وتحقير الذات، وعدم إنسانية الشخص، ومدى الضعف والجهل مقارنة بالمتسلِّط القوي، الجميل، المنتِج، المتحضِّر.

ثانيًا: عقدة العار: عندما يبدأ المقهور بالشعور بواقعه الفعلي، يعيش شعورًا مليئًا بالعار، ولا يستطيع أن يتحمّل ذلك الواقع؛ فيقوم بإسقاط وإزاحة ذلك العار على الآخر المشابِه له.

ثالثًا: عقدة اضطراب الديمومة: يستحضر المقهور هنا كلّ تجارب الماضي، ويعيش في خوف مستمر من أن يَطاله تسلّط وإجـراءات المتسلِّط؛ فيَميل إلى الانعزال (امشي الحيط الحيط)، أو إلى التّماهي مع المحتلّ.

أكثر ما يستفزّ المقهورين ويهدّدهم هو تصرّفٌ يجرح ذلك الشكل الاجتماعي الزائف الذي يستعمله كغطاء لعاره وضعفه بغياب كرامته.

على طول الوقت، كنّا نمر بثلاث مراحل نفسية - خضوع، اضطهاد، انتفاض - وكان الشرط لكي نصل إلى الانتفاض أن نمرّ بمرحلة الاضطهاد. في تلك المرحلة يشعر الناس بمدى الذلّ والهوان. في هذه المرحلة، عادة كان يلجأ العدو إلى إجراءاتٍ للحيلولة دون الانتقال إلى الانتفاض، ولضمان عودة المجتمع إلى الخضوع، كان العدو يقوم بعمل حزمتين، حزمة إجراءات أمنية لتشديد القبضة الأمنية بشكل خفي والتحضير لأيّ طارئ في حال خرجت الأمور عن مسارها، والحزمة الثانية كانت بتخفيف الإجراءات العقابية، ومحاولة رشوة المجتمع رشوة جماعية، وعمل تسهيلات للمجتمع، وتحسين الظرف الاقتصادي.

في مرحلة الاضطهاد، ينقسم الناس في المجتمع إلى أقسام عدة؛ قسم يختار بكامل إرادته ليعود إلى مرحلة الخضوع في اعتقادٍ منه أنّ الخضوع سيُنجيه من الويلات القادمة، وأنّ الخضوع أقلّ الشّرّيْن، وقسمٌ يحاول سحْب المجتمع والدفْع به إلى الانتفاض، وهناك قسمٌ ثالث عادة يكون هو الأكبر، هذا القسم الذي لا يعود يتحمّل العبء النفسي الهائل من شعوره

بالذل والعار، ويدرك أنّ الانتقال إلى مرحلة الانتفاض يحتاج إلى تقديم تضحيات حقيقية، فما يقوم به هو أن ينتقل فقط على مستوى اللغة إلى الانتفاض، لكن على باقي المستويات الأخرى فإنّه يلجأ إلى إزاحة هذا الشعور إلى مَن هم أضعف منه في المجتمع؛ وهذا يعني أن يشعر بأنّه بحاجة لأن يمارِس العنف كحاجة ضرورية، فيمارسه في داخل مجتمعه، ويختار أهدافًا أسهل وأقلّ ثمنًا. هذا السلوك يؤدّي إلى ازدياد العنف المجتمعي بشكل هائل، فوضى وحوادث سير، ومشاكل وتوتّر، وفي الوقت نفسه يقوم بتحميل الآخرين مسؤولية ما هو فيه.

2.2.مراحل القهر

يمرّ المقهور في ثلاث مراحل:

أولًا: مرحلة الرضوخ والقهر: حيث تدوم هذه المرحلة لفترة طويلة نسبيًّا، ويشكّل زمن الرضوخ والاستكانة الفترة المظلمة في تاريخ المجتمع. عصر انحطاط تكون فيه قوى التسلّط الخارجي (الاستعمار) والتسلط الداخلي (سلطة أوسلو مثلًا) في أوج سطْوتها؛ فيكره الإنسان ذاته، ويوجّه عدوانيّته تجاه نفسه ومن يقبع تحت ذات مستوى القهر. ثمّ يزيح هذه العدوانية ليمارسها تجاه الأضعف منه. وفي

حالتنا الاجتماعية، تمثّل المرأة رمزًا للضعف، وتصبح أكثر من تُصبّ عليه عدوانية القول والفعل.

ثانيًا: الاضطهاد: يحوّل الإنسان حالة الغليان العدوانية التي كانت موجَّهةً ضده إلى الآخرين، بعد عدم تمكّنه من كَبْتها أو التخلّص منها، ويبحث عن مخطئٍ ليحمّله وِزر ذلك الشعور، ليتخلّص من عقدة الذنب والدّونية والعار، واضطراب الديمومة - أي عدم قدرة الإنسان على التمكّن من قوى المكان والزمان، وبالتالي فقدان سيطرته على مصيره - لتخفيف التوترات الداخلية في نفسه.

ثالثًا: الانتفاض والتمرّد: حيث يسعى المقهور للتخلّص من كل هذه العُقَد عبر الانتفاض والرّفْض ومواجهة المتسلّط والقهر، عبر الكفاح المسلّح، أو المقاومة غير العنيفة.

2.3.الخصائص الذهنيّة للمقهورين

توضّح الخصائص الذهنية للمقهورين طريقة التفكير والنقد والجدل، وتعطينا لمحة قويّة عن كيفية النقاش الذي يحدث، وعدم تَمرْكزه حول الموضوع والتشتّت، وطبيعة الاستنتاجات الغريبة أحيانًا.

الخصائص الذهنية المنهجية

تتميّز باضطراب منهجية التفكير من جهة، وقصور الفكر الجدلي من جهة أخرى. ويتجلّى اضطراب منهجية التفكير بما يعانيه ذهن المقهور من قصور الفكر النقدي. فهناك عجْزٌ في الجمع في سياق واحد بين الأوجه الموجِبة والسالِبة (المتضادّات)، ويعجز عن الذهاب بعيدًا في تحليل الأمور؛ لأنه لا يدرك أن لكلّ ظاهرة مستويات من العمق، ويكتفي بالمستويات السطحية التي تشكل عادة قناعًا يخفي الحقيقة، ويطلق أحكامًا قطعية نهائية بشكل مضلِّل. أمّا ضعف الفكر الجدلي فهو لبّ الذهنية المقهورة، فهي جامدة قطعية أحادية الجانب تُخفِق في إدراك الترابط والتفاعل بين الظواهر، وما يَنتج عنها من حركية وتغيير.

الخصائص الذهنية الانفعالية

طغيان الانفعالات وما يرافقها من نكوص على مستوى العقلانية؛ ظاهرة مألوفة في الأزمات، ولكنها عند المقهور تكاد تكون هي الأسلوب الأساسي، ويعيش في حالة من التوتر الانفعالي، ممّا يمنع من التصدّي العقلاني الموضوعي للمشكلات والأزمات الحياتية.

3. الوعي

3.1. الوعي العام

منذ أن ادّعيتُ أنّني أصبحتُ واعيًا - على افتراض غياب فكرة الوعي الزائف - لم أعد إلى تبسيط الصراع أبدًا، لم أعد أرى كما تمّ تلقيني منذ الصغر أنّ هذا صراعٌ بين عرب ويهود، بين فلسطيني وإسرائيلي، وهجرتُ تلك الثنائية إلى غير رجعة، تركتُ تلك النظرة التبسيطية الساذجة، واقتنعتُ بتقسيمات علي شريعتي وفرانز فانون لهذا العالم.

الوعي - كما يعرّفه علماء النفس – هو حالة عقلية يتميّز بها الإنسان بمَلَكات المحاكَمة المنطقية، الذاتية، الإدراك الذاتي، الحالة الشعورية، الحكمة / العقلانية، القدرة على الإدراك الحسّي للعلاقة بين كيانه الشخصي والمحيط الطبيعي به.

إنّ الوعي هو ما يكون لدى الإنسان من أفكار ووجهات نظر، ومفاهيم عن الحياة والطبيعة حوله. أمّا الوعي الزائف فهو أن تكون أفكار الإنسان ووجهات نظره ومفاهيمه غير متطابقة مع الواقع، أو غير واقعيّة، وتقتصر على جانبٍ معيّن.

إنّني أميل جدًا إلى تعريف الصديق خالد بركان للوعي: «ليس بمقدار القراءة والكتابة وحفظ المعلومات بقدر ما هو الالتزام بالمسؤولية الفردية في الانحياز المطلق للحق، والأفكار النبيلة، والالتزام بقضايا وحقوق البشر والدفاع عنها.»

عانى مجتمعنا من سياسات تجهيلٍ وصَهْرٍ وكَيٍّ للوعي الفردي والجمعي مدة سنوات طويلة، وتمّ استبداله بوعيٍ زائف ساهَم في إجراءات الاحتلال مساهمةً كبرى في سبيل ترسيخ هذه الأفكار، ولا ننكر مسؤولية الإعلام المتواطئ وأشباهه لمثقّفين وكتّاب ومؤسسات المجتمع المدني التابعة لمنظومة التمويل الخارجي.

لم يحظَ المواطن الفلسطيني على حقّه الكامل في صياغة وعْيِه السليم، فيولد ويعيش ويموت في ظروفٍ غير طبيعية، فكيف نطلب منه مواقف طبيعية؟

ينقسم المجتمع الفلسطيني إلى قسميْن حسب تعرّضهم لتأثير الاحتلال؛ قسم يتعرض لتأثير مباشر، وقسم لتأثير غير

مباشر. ولا أبالغ أبدًا إن قلتُ إنّ بعض الناس الذين يتعرّضون للتأثير غير المباشر يكادون لا يعرفون - أو الأصحّ لا يشعرون - أنّ هنالك احتلالًا إلا عبر شاشات التلفاز.

هناك فكرة بسيطة جدًا يجب العودة إليها، وهي فكرة المسؤولية الفردية تجاه الأفراد الآخرين والجماعة، فعليًا كل فِعل، وكل كلمة تقولها في هذا الظرف يجب أن تَحسب نتائج ما تقوله أو تفعله، كيف أنّه من الممكن قولك وفعلك أن يكون دافعًا للفعل الثوري، أو مثبِّطًا له، لذلك من الضرورة التأنّي والصبر والتفكير والتعلُّم، وأن نسمع أكثر ممّا نتكلم.

يجب مراعاة الرأي العام وكسْبه وعدم معاداته نهائيًّا، فإن كنتَ تؤمن بالعنف الثوري والكفاح المسلّح كطريق للوصول إلى الانعتاق، أودّ أن أذكّرك أنّ فرانتز فانون - أشهر منظري العنف الثوري - قام بترتيب مراحل العمل الثوري واضعًا مرحلة كسب العقول والقلوب بعد تحديد الهدف والاستعداد.

ليس من اللائق ممّن وضعوا على أنفسهم الالتزام الأخلاقي بالدفاع عن الوطن والمجتمع لتحرير الأرض والعقل إشعار الناس بدونيّتهم والتبخيس فيهم مهما خرج منهم ما يسيء بك، فإن لم تتفهّم عقليات الناس وسلوكياتهم، وأنت لا تملك الآن سلطة عليهم، فأنا على يقين بأنّنا سنستبدل متسلّطاً بمتسلّطٍ آخر.

3.2.دور السلطة في معركة الوعي

كان الرّهان على خلْق «فلسطيني جديد» ينتمي إلى المؤسسة العسكرية، صُقل وَعْيُه بما يناسب سياسات «بناء الأمّة» في الخطّة الأميركية، وليتمّ عبر هذا إعادة تأويل عدد كبير من المصطلحات والمفاهيم، وترافق أيضًا مع مفهوم «الاحترافية» التي سعوا إلى زرعها في وعي هؤلاء العناصر ليُفقدوا العسكرية الفلسطينية الثورية أهم عناصرها، ألا وهي الجانب السياسي في الشخصية العسكرية؛ لأنّه من المفروض أن يكون العسكري في أي ثورة يحمل حمولة أيديولوجية وانخراط بالشأن السياسي قادرًا على تعويض الفرق في القوة بينه وبين عدوّه.

خطاب الأجهزة التي تقول «نحن لا نتدخل بالسياسة» وإعادة صياغة العقيدة العسكرية الفلسطينية حول الثائر مثل أي عسكري نظامي آخر في هذا العالم.

في ظل كل هذه العملية من القصف الذهني المتتالي، خرج بعض منتسبي الأجهزة ممّن رفضوا هذا؛ ليكون دليلًا على مناعة أي منظومة، ولتحمل دلالة مهمة أخرى، ألا وهي أنّ أيّ أداة قمع تحمل في داخلها بذور ثورية ستدفع بالناس إلى التمرّد.

4. المجتمع

يُعرف التكيّف الاجتماعي بشكل عام بوصفه عملية اجتماعية وظيفتها تقليل أو تجنّب الصراع، أو هي عملية تلاؤم اجتماعي تؤدّي إلى وقْف الصراع بين الجماعات، من طريق التدعيم المؤقّت أو الدائم للتفاعل السلمي.

أما المضمون النفسيّ للتكيّف الاجتماعي فيشير إلى السلوك الفردي أو السلوك الجماعي الذي يسعى للتوافق مع مواقف الصراع، من خلال تجنُّب كافة مظاهر العداء، من طريق منْح تعويضات اقتصادية واجتماعية ونفسية لجماعة من جماعات الأقلية. أما التأقلم فقد فرّق علماء الاجتماع ما بينه وما بين التكيّف بحيث يتم تعريفه على أنه تلاؤم السلوك الإنسانيّ مع ظروف البيئة الطبيعية.

يجب أن نتعامل في رؤيتنا وتحليلنا للمجتمع ومواقفنا الأخلاقية والسياسية بما يتناسب وخط الجماهير وواقعهم،

وعلينا إدراك أننا كفلسطينيين نعيش في زمانيْن، زمان عالمي، ما بعد حداثي يحمل أخلاقياته وقيمه وفلسفته، وزمان فلسطيني استعماري، يعود لعصر سابق وظروف سابقة ويحمل أخلاقيّات وقيم وفلسفة أخرى.

علينا الإقرار أنّ الناظم الأول والأساسي والرئيسي لأخلاقيات وأحكام المجتمع الفلسطيني هو خليط بين أحكام الدين الإسلامي والعادات والتقاليد والثقافة والقيم المحلية التي ترسّخت عبر العصور من ثمّ يأتي القانون، ولا تحتلّ مقولات «الإنسانية» المشتقّة من القانون الـدولي وميثاق حقوق الإنسان والشرائع الدولية والقيم الليبرالية السائدة في عصر العولمة إلى آخر الهرم في نواظم أخلاقيات المجتمع الفلسطيني.

بما أنّ الدين هو أحد النواظم الرئيسية للأخلاق في مجتمعنا، فإنّ الفقه الإسلامي تأخّر كثيرًا عن مجاراة الحداثة وتطوّراتها على البشرية، ولم يحدث أن تعامل الفقه الإسلامي مع حالة شبيهة بحالة فلسطين سابقًا، ولم يتمّ حسْم كثيرٍ من الأحكام الفقهية في ظلّ الدولة القِطرية القومية وطبيعة الحرب الحديثة.

نتيجة لعدم الاجتهاد والتجديد في الفقه بما يتناسب ومسائل العصر، فنجد أنفسنا مضطرّين لإشراك العادات

والتقاليد والقيم المجتمعية مع الحُكم الشرعي لأنّها أكثر مرونة واستجابة للتطورات والقابلية للتجديد.

فالفقه الإسلامي حَرَّم قطعًا الاعتداء وأوجب الدفاع وردّ المعتدي، وهذه قاعدة لا اجتهاد فيها وتصلح لكل مكان وزمان، فإذا اتّفقنا أنّ كامل مجتمع العدو هو معتدٍ، وجب علينا ردّ الاعتداء ولا حرمة لدم أحدٍ منهم.

5. الآفات والأمراض

في ظلّ سيطرة شريحة متنفّذة وقوية ومسيطِرة على القرار السياسي والبنية الاقتصادية، وفي ظلّ سياسات القمع العلني والخفيّ، وسياسات الاحتواء وفساد المنظومة، وتغليب المصالح الفردية والفئوية وضعف الفصائل وترهّلها، وسيطرة العصبية الحزبية وهجْرها للتجديد، ناهيك عن وجود الاحتلال والارتباط العضوي للسلطة بالمشروع الامبريالي وأمواله، كيف لك أن تسيطر وتكتسح المجلس في ظلّ هذا؟ بربّك كيف لصندوق انتخاب أن يكون له الحقّ بالتنازل عن شبر في فلسطين؟

نعم، أنا مع الإقصاء، من يتنازل عن 78 % من فلسطين يجب إقصاؤه، من يرتبط بعلاقات مع العدو (المعسكر الاستعماري ككل) يجب إقصاؤه، من يحترف فلسفة اعتذارية

عن نضالات شعبنا ويحقّرها يجب إقصاؤه، وهل يستقيم الوضع من دون إقصاء هذه الفئة المارقة؟

الدولة مقتل الثورة

اختلف جيفارا وفيدل كاسترو عقب نجاح الثورة الكوبية على هذه الجدلية، فكانت وجهة نظر جيفارا أنّه من الضرورة تحرُّر الثوّار من عبء الدولة ليستطيعوا تصدير الثورة، في حين خالفه كاسترو. لكن ما حدث أنّ جيفارا أصاب وكاسترو أخطأ. هذا الكلام عن دولة كاملة الشروط فكيف بنصف دولة؟ تستطيع أن تلاحظ أنّ رأي جيفارا انطبق على الحالة الفلسطينية أيضًا، بعد أوسلو أصبح عبء مهمّات وواجبات الدولة على ظهر الثورة، وعلى حساب التحرير. وبعد الهروب الصهيوني من غزة، وانخراط حماس في السلطة، أصبحت مقيّدة بهدنة تتجدد دائمًا لما يقع على عاتقها من مسؤوليات وواجبات.

الفساد السياسي

ما سأتحدث عنه فقط الفساد السياسي، حيث إنّ هذا الفساد الأكثر انتشارًا وتفشّيًا ستجده أينما ولّيت وجهك، من قمة الهرم إلى أدناه، في الأحزاب والفصائل ومؤسسات

المنظّمة، والمنظّمات الشعبية، والتشكيلات النقابية؛ كلهم انتهت شرعيتهم، وعلينا الانتظار حسب القانون الأساسي لانتخاب بديل، وعندما أجمعوا على أمرٍ جرَّدوا 41.8% من تعداد اللاجئين (حسب إحصائيات وكالة الغوث 2008) حقّهم في انتخاب ممثّلين لهم في المجلس الوطني للحفاظ على استقرار العرش الهاشمي، وأَسقطوا 1.4 مليون فلسطيني من فلسطينيّي الداخل مِن على جداول أعمالهم، فكيف يُداويها من كان هو الداء؟

ثقافة أوسلو

عندما أسمع القصص التي يتناقلها مَن هم أكبر مني عمرًا عن ثقافة المجتمع الفلسطيني وأخلاقه أثناء الانتفاضة الأولى، أُصاب بصدمة حقيقية، وكأنّهم يتحدثون عن عالم آخر. عندما أرى هذا المجتمع الذي تسيطر عليه حمّى الاستهلاك وثقافة الخلاص الفردي، وانحطاط القيم والأخلاق، وتفشّي الشعور بالدّونية، وترسّخ العقل الكولنيالي، والانضمام إلى الفصائل أصبح لجني الثمار وليس لتقديم التضحية والنضال، أُدرك أنّ الحلّ في التخلّص من هذا العار.

فلسفته الاعتذارية

انتظِروا الأفظع قريبًا، فربما سيصبح الحلم بعكّا مخالفًا للقانون، اقتناء «عائد إلى حيفا» يناهض سياسة الدولة، حصان «محمود درويش» الذي تُرك وحيدًا سيصبح مهاجرًا غير شرعي، وما زلت أستغرب إصرار أبي مازن على أنه لا يريد سحب الشرعية عن «إسرائيل»، وما أستغربه أكثر فلسفته الاعتذارية عن نضالات شعبنا، لإسقاط شرعية اللقطاء.

تجّار ذكريات (فقط لمن فسدوا وأفسدوا)

هذه نماذج من مجتمعنا العربي والفلسطيني، تتكرّر في أكثر من شخص، وتأكّدْ أنّك قابلتَ أحدهم في حياتك.

- **النموذج الأول:** أنا مناضل، حاربت في الثورة، وخدمت أربعين سنة، وقدّمت وضحّيت، وجاي بتسألني وبتشكّك في وطنيتي؟ إنت شو قدّمت وشو عملت؟ يا راجل (عفوًا ألفظها باللهجة المصرية مع حالة من الاستغراب والاستنكار) مناضل شو؟ أولًا يا سيدي ما ظلّ عنّا مناضلين (أستثني بعض الحالات)، اليوم عنّا موظفين. ثانيًا، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وركّزلي في هاي كويّس، والشرط **وما بدّلوا تبديلا**، إنتو بدلتوا النضال بالابتذال، وبدلتوا

الخنادق بالفنادق... وليش محزّق هلقدي، هدّيلي حالك حبيبي زلمتي ليفقعلك عِرق. نهبتونا ونهبتوا الثورة، وأخدتوا وظائف عالية وبدالات وعمولات وحوافز ومُرافق يحمل الجاكيت، وواحد لبَكيت الدخان، وواحد للسيارة وواحد، يتخوّثوا عليه ولاد حضرتك...، يعني فلسطين أعطتك اللي ما بيحلم فيه حدا (ولفترة من الزمن منحتك الاحترام أمام العالم أيضًا)، ولو عرفوا ضبّاط الجيش الإسرائيلي عن هاي الضمانات التقاعدية كانوا انضمّوا للثورة بدل ما ينضمّوا للجيش. وليش معصّب ما دام وضعك زينون؟ **اخذتوا كل اشي وفقدتوا الاحترام وفلسطين ما ظلمت حدا.**

- **النموذج الثاني:** الأخ قائد شبابي! هيك بيحكوا (مع ابتسامة صفراء ويحاول إظهار التواضع): طيب سيدي شو بتعمل؟ غير إنك بتسافر وبتحكي بمؤتمرات؟ وبتقابل سيادته ومعاليه، وتثني على كلام عطوفته؟ وشاطر بالتنسيق للندوات، وبتكتب في جريدة؟ يعني بتشارك بمظاهرات ضد الاستيطان والجدار؟ عمرك ذقت طعم المياه العادمة اللي بيرشّوها؟ عمرك حسّيت بلسعة رذاذ الفلفل بعينيك؟ عمرك انضربت بالعصي؟ تظاهرت عشان المصالحة؟ تظاهرت تحت المطر ضد المفاوضات؟ حاولت تقتحم

مؤتمر تطبيع؟ **بلا هبل، أنا نذرت نفسي لإشي أكبر من كل الحكي هاد، أنا بجهز حالي لقيادة الهبل اللي مثلك.**

يقف ذلك القائد ليخطب بالجماهير ويثني ويقول ويستشهد، ويداعبنا بأسماء الشهداء، وينهي خطابه بوعد: «لن نتخلى عن أي شبر من تراب الوطن»، بعد التصفيق الحادّ اللاإرادي، انظر لوجوه الناس ستجد عيونهم تفضحهم بما يفكرون، وتكاد تسمعهم يتساءلون: «عن أي وطن يتكلم؟».

أجيالٌ تهافتت بشكل غير مسبوق على الثقافة الغربية، والتقمّص لثقافة أحادية الجانب! وتحاصر الأفكار.

أنا شخصيًا أصبحت أنظر لكل شخص «مستغرب» بنظريات الحكم المدني! سمعنا بمصطلح الاستشراق، والآن نحن نمارس الاستغراب! فما الذي يدفع نشأة أجيال التحضّر وعالم الإلكترونيات والشبكة العنكبوتية إلى نظرتهم للعالم الغربي بنظرية التفضيل؛ لتصبح الهجرة للغرب أول أحلامهم؟

بطريقةٍ أو بأخرى، يجب طرْح وإثارة المواضيع الجدلية. فإلى متى سيبقى وضْع شبابنا الجامعي وغيره بحالة الفراغ والضياع؟ وما دور المثقّفين؟ والمؤسسات التي تُعنى بالتنشئة الاجتماعية، والأسرية؟ وهل من الممكن لأمّة اقرأ التي لا تقرأ أن تستيقظ من غيبوبتها وسباتها؟ ومتى ستُعقد الاجتماعات

على شتّى الأصعدة التي تهيم بالمجتمع وترقى به صعودًا؟ وهل يمكن لشبابنا المسلم أن ينصر نبيّه محمدًا كما قال: «نُصرتُ بالشباب؟».

حجم العنف المجتمعي المنتشِر الآن هو دلالة على مدى شعور المجتمع بحالة الاضطهاد. والنقاشات الدائرة الآن والردح المخزي بين قطاعات من الشعب، إن كانت قطاعات مناطقية أو حزبية أو فكرية، وتحميل كل طرف مسؤولية الأمر، هو من ضمن عملية الإزاحة (حتى القيام بصبّ كل غضبك على السلطة يندرج ضمن عملية الإزاحة، وتختار هذا لأنّه هدف أسهل، وهذا لا ينفي ضرورة مقاومة السلطة، لكن وفق شروط وقواعد معينة). مثلًا، أصبح مطلب ضرب راسم الكاريكاتير المسيء أكبر من مطلب الانتقام من العدو.

إن كنت تودّ أن تشارك العدو والمتخاذلين في سحْب المجتمع وإعادته للخضوع، فشارِك في تلك الحوارات واطّلِع، وإن كنت تودّ أن تكون من الفئة التي تسحب المجتمع إلى الانتفاض فكفّ لسانك.

إنّ هنالك من يَكيد لنا، ومع ذلك في كثير من الأحيان استطاعوا أخْذنا على حين غرّة لأنّنا لم نتجهّز.

الأمر لا يحتاج إلى بناء بنية مادية معقّدة جدًا، وليس بحاجة إلى موارد ومصادر تَفوق إمكانية المجتمع، الأمر بحاجة فقط إلى مجموعات من الشباب في كل قرية بأن يحرسوا بيوتهم وقراهم، والاعتماد على الذات، مش نقعد نردح ونطالب بحماية، «والله ما حدّ بيقدر يحميك إلا إيدك».

«ليش بنقاوم عدو أقوى منا؟»؛ بتحليل الصراع بيننا وبين عدونا، هو صراع وجودي بحت، فإذا مَمِتِّش هَلْحين فالعدو يسعى إلى إبادتي، إذا مَقَتلْنيش بسرعة أو بسرعة شديدة فبالنهاية أنا في طور الإبادة. فكرة أن أقاوم هذا العدو الذي ربما يكون قادرًا على إبادتي، وعلى الأغلب وبشكل مجرّد وبحسابات القوة هو نعم قادرٌ على الإبادة، ولكن الفكرة هي رفْض أن أُباد بسهولة، أن تُنغَّص الإبادة.

«بقدر أعيش وأنا قاعد في داري بعيش وبملّص أنا وأسرتي مراتي وأمي وأبوي... بس بعدين بنطرح السؤال الوجودي ليش أنا عايش؟ شو معنى هاي الحياة اللي بدون كرامة بدون ما يبقى عندي القدرة على رفع الرأس».

كلمات قصار

1. أن نتجرّد في النقاش والتحليل من أمانينا، ونرضخ لواقع المجتمع في التحليل والتفكيك والتشريح، وليس لعالم ومجتمع آخر متخيَّل نرسمه وفق الهوى.
2. لا بدّ من القول إنّ طبيعة الصراع تحدّدها طبيعة المتصارِعين، والمعتدي هو من حدّد ساحة الحرب ومجالاتها، وهو من بدأ ولسنا نحن، وحربنا هي حرب دفاعية بحتة.
3. من الواجب القول إنّه من غير الممكن أبدًا نفي الدين خارج المجال العام، والصراع ما دام يشكّل حيّزًا كبيرًا في هويّة ووعي المجتمع، وما دام يملك في داخله قدرة على تحفيز الناس وتعبئتهم ضدّ العدو.
4. إنّ انطلاق ثورة فلسطينية هو النموذج الأقدر على محاربة ظاهرة داعش، وتوجيه العنف ضد العدو سيحلّ الكثير

من تناقضاتنا الداخلية، ويوفّر فاتورة دم كبيرة ندفعها في المنطقة.

5. لقد تملّكني هؤلاء الشهداء وسكنوا بي؛ ولا أستطيع الحديث عنهم بالكلام!

6. تحرير فلسطين يمرّ عبر رقاب آل سعود.

7. بدّك تصير مثقّف، بدّك تصير مُشتبِك، ما بدّك مُشتبك... بلا منّك وبلا من ثقافتك.

8. كلّ ما تدفعه في المقاومة إذا لم تحصده في حياتك، فستحصل عليه لاحقًا، المقاومة جدوى مستمرّة.

9. لا تعتَدْ رؤية الصهيوني، حتى لا تألفها عينك قبل عقلك، بل افعل ما يفعله أبناء غزّة حينما يشاهدون صهيونيًّا، يركضون باحثين عن حجرٍ لرجمه به.

10. راعِ ثقافة المجتمع ولا تعادِها.

11. تعامَلْ مع المحيط بواقعية، وحاوِل المحافظة على الاتّزان الانفعالي.

12. عرِّف الناس حقوقهم وواجباتهم.

13. عرَّف الناس قدراتهم الذاتية، وتقدير الفروقات الفردية.

14. حوِّل كل ذلك الغضب باتجاه الاحتلال.

15. لا تبالِغ بالشكوى والتذمّر، ولا تصبح مغناطيس للأفكار السيئة؛ لأنّك ستفسّر كل ما يحدث بطريقة سلبية.

16. ساهِم في تغيير هذه القناعات والقضاء على الوعي الزائف.

17. لطالما كانت البرجوازية الفلسطينية ترى أنّ دورها هو تعبئة الشعب من أجل المقاومة، دون أن يساهم أفرادها أنفسهم مساهمة جدية في النّضال.

18. روح المغامرة التي تتقن تمامًا استغلال الإمكانيات المتاحة والمتوفّرة للوصول إلى الهدف هي ما ستدفع إلى تفاقُم الأمور، وإلى استمرار الهبّة وتطوّرها.

19. خُذْ لنفسك مبادرة، والتزِم بها، ومَن يدري لعلّ مبادرتك تصنع ثورة، فالثورة مبادرة فردية تبنّتْها جماعة.

20. حرِّر عقلك من الأصنام بالبحث عن الحقيقة والتدريب العملي الميداني، ولا تنزعْ إلى السلبية المطلَقة والإيمان التامّ بنظرية المؤامرة.

21. كل من لا يضع فلسطين كقضية مركزية، ولا يضع العدو الصهيوني كتناقض رئيسي، أنبئكم بأنّه سيضّل الطريق.

22. كم من بطلٍ وطنيٍّ كان ميلاده السّجن؟ أبو جلدة والعرميط وفريد العسعس وأبو كباري كانوا أيضًا من مواليد السّجن، وأصبحوا لاحقًا من الرموز الوطنيّة.

23. ستقتلني وتقتلك المدينة، أنا ستقتلني بكراهيتي لها وهروبي منها ومن مدنيّتها، وأنت سيقتلك سعْيك ونَهَمك للمدينة والمدنيّة.

24. ليست الصالونات الفكريّة والثقافيّة هي التي ستحرّر بلادنا، بل النزول للناس والشارع.

25. البحر أكبر من أن يُحاصَر يا أمم العالم!

26. الاحتلال إلى زوال إذا أجدْنا فَهْمه أفضل وأجدنا إدارة المعركة معه، فالعدو لا يفهم إلا لغة النار، والاحتلال لا يزول إن لم تكن هناك مقاومة.

27. الكلمة السرية في الحرب ليست الموت، فأنت تذهب إلى الحرب كي تعيش؛ لأنّ الكلمة الرئيسية في الحرب هي «اقتل.. اقتل عدوّك حتى لا يقتلك».

28. مفاهيم الشرف والعزة والكرامة لها دور كبير جدًا؛ لأنّها شيء يلتصق بالروح أكثر مما يلتصق بالعوامل المادية.

29. قتالنا اسم آخر لموتنا المؤجَّل، ولكنه المنزَّل.

30. لم نعرف معاني أخرى للقتال غير الانتصار، الانتصار بقتلكم، أو موتنا ونحن نشدّ على جمر مواقفنا.

31. كل فلسطيني على ثغر من ثغور فلسطين فإيّاك أن تؤتى فلسطين من قِبلك، «لا تسمح أن تكون أنت الثغرة في البنيان المرصوص».

32. كلّ فلسطيني يرى فلسطين انتماءً نضاليًا بغضّ النظر عن الهويات الفرعية.

33. اللغة لا تحرّر أرضًا، وإن كانت اللغة تحافظ على هوية ووجود الإنسان في أرضه، إلّا أنّ تحرير الأرض لا يكون إلا بالسلاح.

34. لا تحلموا بعالم سعيد ما دامت إسرائيل موجودة.

35. «اِحــذروا المـوت الطبيعي، ولا تموتوا إلّا بين زخّات الرصاص»[1].

(1) اقتباس للشهيد باسل من غسان كنفاني.

الوصيّة

تداولت مواقع التواصل الاجتماعي وصيّةً تركها الشهيد في داخل البيت الذي تحصّن فيه، قال فيها:

«تحية العروبة والوطن والتحرير، أمّا بعد...

فإن كنت تقرأ هذا فهذا يعني أنّي قد مِتُّ، وقد صعدَت الروح إلى خالقها، وأدعو الله أن أُلاقيَه بقلب سليم مقبِلٍ غير مدبِرٍ بإخلاصٍ بلا ذرّة رياء.

لكم من الصعب أن تكتب وصيّتك، ومنذ سنين انقضت، وأنا أتأمّل كل وصايا الشهداء التي كتبوها. لطالما حيّرتني تلك الوصايا، مختصَرة سريعة، مختزَلة، فاقِدة للبلاغة، ولا تشفي غليلنا في البحث عن أسئلة الشهادة. وأنا الآن أسير إلى حتفي راضيًا مقتنعًا، وجدتُ أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني! وهل هناك أبلغ وأفصح من فعل الشهيد. كان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهورٍ طويلة، إلا أنّ ما أقعدني عن هذا هو أنّ هذا سؤالكم أنتم الأحياء، فلماذا أجيب أنا عنكم، فَلْتبحثوا أنتم... أمّا نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله».

فإن كنت تقرأ هذا، فهذا يعني أنّي قد مِتُّ، وقد صعدَت الروح إلى خالقِها، وأدعو الله أن ألقيَه بقلب سليم مقبلٍ غير مدبرٍ بإخلاصٍ بلا ذرّة رياء.

ISBN: 978-614-464-041-8